ماذا ربحت وماذا خسرت

من أسواق السنة الماضية ؟

للدكتور زكى مبارك

كتب إلىّ أحد تجار الورق يقول : إنه يرجو أن أرسل إليه ما بقى له عندى ليسوى حساب تجارته فى سنة ١٩٣٩

وأنا أيضاً أريد أن أسوى حسابى مع قوى وزمانى ، حساب سنة ١٩٣٩ فقط ، أما حساب الأعوام السوالف فهو عبء ثقيل والرجوعُ إليه ضربٌ من الخذلان . وأين أنا مما فات ومات ؟ يرحم الله جهادى فى سبيل الأدب والبيان !

ربحت فى العام الماضى أشياء ، وخسرت أشياء !

وأعظم ربح ظفرت به فى السنة الماضية هو الصداقة العظيمة التى تفضل بها قراء مؤلفاتى ومقالاتى ، فأنا اليوم أشعر شعوراً قوياً بأن لى أهلاً وعشيرة فى سائر الأقطار العربية ، وهذا الشعور يزحزح ما يعترض طريقى من عقبات وأشواك ، وبفضل ذلك الشعور أكاد أنسى الأعاصير التى تثور فى وجهى من حين إلى حين

والكاتب كالموسيقار يسره أن يعرف أنه موصول الأواصر بالعواطف والقلوب ، فمن حدثكم أنه لا يهتم بسخط القارئ أو رضاه ، فاعرفوا أنه يقترف إثم الغرور البغيض ، أو الكذب السخيف .

وتعظُم قيمة هذا الربح فى قلبى كلما تذكرت أنه بشيرٌ بقيام دولة قوية للأدب العربى ، وهو أدب كان يسيطر فى ماضيه على كثير من الأمم والشعوب ، فإن استطعنا أن ننتفع بعواطف القراء ونجذبهم إلى الأدب من جديد كان ذلك مجداً ندفع به عُدوان أهل البغى على الآداب والفنون

وما الذى يمنع من أن يكون للقلم دولة فى هذه البلاد ؟

أتصدّقون ما يمليه الضجر على أقلامنا من وقت إلى وقت حين نتهم مصر بالجحود والعقوق ؟

إن مصر فى تاريخها القديم والحديث قد استمعت كل قول ، واستجابت لكل نداء ، فكيف يتوهم الكاتبون والباحثون أنهم لن يلقَوا فيها غير الضياع ؟

ثم أقول إن العام الماضى كان من الأعوام التى اختبرت فيها أخلاق . وماذا الأدب أن أدّعى التفرد بكرم الأخلاق ، وإنما هى حيلة أتوسل بها لخلق فرصة أنوح فيها على أخى وصديقى محمد الهراوى . وهل ذرف الزيات من الدموع على ابنه رجاء ، أو ذرف هيكل من الدموع على ابنه ممدوح ، بعض ما سكبت من دم القلب على صديقى محمد الهراوى ؟

كان من عادتى أن أرتاد ملاهى القاهرة فى المواسم والأعياد لأفهم شيئاً من أسرار المدينة التى تصنع اليوم بأذواق الشرق ما تصنع . فمن يصدّق أن شارع فؤاد صار فى عينى صورة من صور الإقفار والإعجال ، لأنه خلا من وجه الصديق الغالى ، وجه محمد الهراوى ، وجه الأخ الذى عرفت بفقده كيف يكون الجزع على فقد الرفاق

وهل تسمح الدنيا مرة ثانية بصديق مثل ذلك الصديق ؟

وأين الصديق الذى تصحبه عشرين سنة فلا ترى منه غير كرم العهد وصدق الوفاء ؟

أين الصديق الذى يرى من السعادة أن يكون رأيه من رأيك وهواه من هواك ؟

إن دموعى على محمد الهراوى دلتنى على جوانب من أخلاقى ، وشرفتنى أمام نفسى ، وفرضت علىّ أن أومن بأنى رجل له قلب. فلا كان الصبر عنك يا أكرم ذاهب وأعزّ فقيد

وكان من مغانم السنة الماضية أن تصير اللغة العربية لغة الدرس فى كلية الطب وكلية العلوم ، وهى دعوة عانيت فيها من الشقاء ما عانيت . فمن قال إنه دعا إلى هذه الفكرة مرة أو مرتين أو مرات فأنا جعلتها حُلماً أهتف به فى يقظتى ومنامى أكثر من خمس عشرة سنة . وبسبب الإلحاح فى نشر هذه الدعوة رأى بعض أقطاب الجامعة المصرية من الثقلاء ، وأوصدوا فى وجهى كثيراً من الأبواب . فإن قال أعضاء المؤتمر الطبى العربى بعد أسبوعين إنهم قرروا تدريس الطب باللغة العربية فى كلية الطب بالقاهرة فليذكروا مشكورين أنهم سمعونى علانية يوم التقينا فى بغداد سنة ١٩٣٨

وفى العام الماضى قُدّمت لكلية الحقوق رسائل لامتحان الدكتوراه باللغة العربية ، وقال قائل : إن فى ذلك مجاراة للنزعة القومية ، فمن واجبى نحو نفسى وأنا رجل مظلوم فى وطنى أن أقول إن ذلك لم يقع إلا طلباً للسلامة من القلم الذى شن الغارة على من يقبلون رسالة باللغة الفرنسية عن الدِّية فى الشريعة الإسلامية

ولتلك المعركة ذيول فصلتها فى كتاب « البدائع » وفى رسالة « اللغة والدين والتقاليد » وفى كتاب « الأسمار والأحاديث » فإن غضب وزراء المعارف الذين حاربتهم من قبل فليعرفوا أنى أديت إليهم بذلك التوجيه أعظم الخدمات . وحسبهم من الشرف أن يسمعوا كلمة الحق من رجل ليس له فى الحكومة عمٌّ ولا خال

وفى العام الماضى قررت وزارة المعارف تأليف كتاب للمطالعة فى المدارس الثانوية من صميم الأدب الحديث ، وأنا صاحب هذا الرأى ، وقد شغلتُ نفسى بالدعوة إليه أكثر من عشر سنين .

وفى العام الماضى قضت الظروف بأن تقبل وزارة المعارف إسناد تعليم اللغات الحية فى المدارس الثانوية إلى المصريين ، فليتها سمعت الدعوة التى أذعتها منذ أعوام طوال ، الدعوة إلى أن يكون مدرسو اللغات الحيـة من المصريين لنخلق جيلاً من المتفوقين فى اللغات الأجنبية ، وليكون بيدنا الأمر فى تكوين الثقة بالنزعة الوطنية

وفى العام الماضى ... ما هذا ؟ ما هذا ؟

أرانى أتحدر إلى هاوية المنّ المقوت ، فلأرجع إلى تدوين ما خسرتُ فى السنة الماضية :

فى سنة ١٩٣٩ نسيت أنى موظف بالحكومة المصرية فوقع قلمى فى أغلاط لا يقع فيها الموظفون « العقلاء »

أنا من كتّاب الطبقة الأولى بشهادة أعدائى ، ولكنى لم أخط خطوة واحدة فى كسب حق جديد لحرية الأقلام . كنت أستطيع أن أنتفع بالدكتور هيكل باشا ، ولكننى لم أقابله إلا حين دعانى ، وقد هجمت عليه فى جريدة المصرى مرتين . وكنت أستطيع أن أنتفع بمعالى النقراشى باشـا ، وهو رجل مُشرق العقل ، ولكنى قصرت فلم أقابله غير مرتين ، كنت فى الأولى مهنئاً ، وهى زيارة لا تتسع لبحث ولا درس ، وكنت فى الثانية مقروناً بجمهور المقتشين بالتعليم الثانوى ، وهو مقام لا يتسع فيه المجال لغير الشؤون الرسمية

أليس من سوء البخت أن يكون لنا وزير مثل النقراشى باشا ولا أظفر منه بشىء لحرية الأقلام ؟

كنت أحب أن أطلب إجازة طويلة لعام أو عامين لأحقق مشروعاً عجزت عن تحقيقه فى بغداد وهو تأليف كتاب عن أبى تمام إمام المبتكرين فى القرن الثالث ، فهل شغلت نفسى بتقديم هذه الرغبة إلى معالى النقراشي باشا وهو من وزرائنا الأدباء ؟

وكنت أحب أن أقترح إنشاء قلم خاص بمراجعة ما يُكتب عن مصر فى الأقطار العربية ، فهل شغلت نفسى بتقديم هذا الاقتراح إلى رئيس الوزارة المحمدية أو رئيس الوزارة الماهرية ؟

دونت هذه الآراء فى كتاب « ليلى المريضة فى العراق » ولكن من يضمن أن يكون هذا الكتاب مما يقرأ الوزراء ؟

ماذا خسرتُ فى العام الماضى ؟ ماذا خسرت ؟

كان عندى مشروع عظيم هو ربط الأمم العربية والإسلامية برباط وثيق من الحب والعطف

فما الذى صنعت لتحقيق ذلك المشروع العظيم ؟

ضيعت العام الماضى ـ وا أسفاه ! ـ فى مجادلات ومشاغبات نفعُها قليل ، وانصرفت عن تحقيق ذلك المشروع الجليل

فمن يُسعدنى على بكاء ما ضيعتُ من أمانىّ وأحلامى ؟

وكان فى نيتى أن أخلق عُصبةً للخير من أصدقاء كلية الآداب، كنت أحب أن أنظّم سلسلة للدراسات الأدبية والفلسفية أصنع بها فى القاهرة بعض ما يصنع أساتذة كلية الآداب فى الجيزة ، فأين أنا مما أردت ؟ وأين ما صنعتُ لكلية الآداب وفوق ثراها سكبت عُصارة صباى ؟

وكان فى نيتى أن أكوّن مكتبة عظيمة مما أصدر المتخرجون فى كلية الآداب ثم أسوقها فى عربات مزينة إلى قصر صاحب الجلالة الملك فأين ضاعت تلك النية ؟ وما مصيرها فى تاريخ العقول؟

وكنت أحب أن أقوم بدراسات قوية أحدد بها اتجاه الأدب الحديث فى مصر والمغرب والشام والعراق ، فأين من يعزينى على ضياع هذا الأمل الغالى ؟

وكنت أشتهى أن أزور الحجاز لأكتب عن وطن الرسول كتاباً لا يعرف الزور ولا الرياء ، فأين ضاعت أحلامى ؟

وكنت أتمنى أن أؤرق غفوات المغرورين من «أعلام» الأدب الحديث ، فإلى أى أفق من آفاق الضياع ضاع أملى فى تأديب أولئك « الأعلام » ؟

كنت وكنت وكنت ، فما الذى صنعت السنةُ الماضية بأغراضى وأحلامى ؟

(فحديث شجون)

زكى مبارك